النسيان فى نظر التحليل النفسى

للآنسة فائزة على كامل

— ٢ —

وقفنا مع فرويد فى المقال السابق على تفسير جديد للنسيان بناء على دراسته لبعض الأفعال التى تحدث فى حياتنا اليومية كنسيان اسم شخص أو موضع شئ ... الخ، وسنعرض هذه المرة لعملية النسيان فى المجال المرضى . فهنا نجد أن فرويد قد نسب إلى هذه العملية أهمية بالغة إذ تبين أنها العلة لبعض الأمراض النفسية كالهستيريا . فما الذى أدى به إلى هذه النتيجة ؟

فيما قبل « فرويد » كانت توجد بديهية طبية هى « فكر تفكيرا تشريحيا » فكانت فكرة المرض مرتبطة بفكرة الإصابة . فمعنى أن نفكر تشريحيا هو أن ننظر إلى الإنسان من ناحية بناء جسمه وتناسى الناحية الوظيفية للأعضاء . فنعتقد بوجود « أشياء » لا « أفعال » . ولكن انضحت مضار الأخذ بهذا الرأى إذ كان له أسوأ النتائج من الناحية العلاجية إذ ساد الإيمان بأن ما هدم أو فقد فلا أمل فى برئه . فكان الأطباء يقفون مكتوفى الأيدى أمام مرض « الأفازيا » (Aphasia أى اختلال الوظائف اللغوية) بناء على ذلك الأساس

ثم عدل عن هذه البديهية وأخذ ببديهية أخرى هى « فكر تفكيرا فسيولوجيا » أى يجب أن نراعى الأفعال فلا نهمل ما تقوم به الأعضاء من وظائف . ولكن جاء فرويد وأظهر أن التفكير الفسيولوجى لا يكفى أيضا ؛ ويجب أن نفكر تفكيرا سيكلوجيا، ففى كثير من الحالات التى ترددت عليه وجد أن العلة مشكلة سيكلوجية . هذا بالإضافة إلى أبحاث « بروير Breur » التى ساعدته إلى حد كبير على الوصول إلى ما وصل إليه خاصا بالهستيريا

فقد حدث أن جاءت « لبروير » فيما بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٨٨١ فتاة تدعى « Anna O. » تعانى حالة هستيرية . كانت فى العشرين من عمرها ، على جانب من الذكاء ، طيبة القلب ، تبالغ فى مرحها وتفرط فى حزنها . كانت تعيش فى عالم من أحلام اليقظة إذ لم تشأ الظروف أن تجعلها تقع فى شراك إحدى تجارب حب الشباب . وكانت أعراضها الهستيرية تنحصر فى شلل وتشنج الذراع الأيمن بصفة خاصة . وبعد أربعة شهور من ظهور هذه الأعراض توفى والدها فأصابها « التجوال النومى Somnabutim » عقب ذلك

عد « بروير » فترة حضانة المرض من بداية مرض والدها إذ كانت متعلقة به تعلقا شديدا وقضى كل وقتها فى القيام بتمريضه . فبعد وفاته ازدادت حالتها سوءا فاشتدت هلوساتها التى كانت تدور حول الأفاعى ووصلت إلى حد مرعب شنيع . وصارت تراودها فكرة الانتحار من حين لآخر وتصيبها فيبوبات فى ميعاد واحد تقريبا من كل يوم . كذلك فقدت معرفتها للغتها الأصلية وهى الألمانية ، وأصبحت لا تستطيع إلا تكلم اللغة الإنجليزية وأخيرا تكلمت الفرنسية والإيطالية

ابتدأ « بروير » فى تطبيق طريقته العلاجية مع هذه الفتاة فلاحظ أنها تعود إلى حالتها الذهنية العادية عندما يساعدها أثناء التنويم المغناطيسى على تذكر الموقف والأشياء المرتبطة به مع إفساح المجال للانفعالات التى قد يثيرها هذا التذكر . فهذا التنظيف الروحى أدى إلى اختفاء كثير من الأعراض . وكانت هى نفسها تسمى هذه الطريقة « chimney sweeping » أو « talking cure » وقد كان ذلك تشجيعا « لبروير » على الاستمرار إذ كانت تصرح له المريضة بأن يدعها تتحدث لأنها تجد فى ذلك شفاء

ومن حديثها استطاع « بروير » الوصول إلى كيفية تكون المرض الخاص بشلل ذراعها . ففى ذات ليلة كانت المريضة تجلس إلى جوار سرير والدها المريض واضعة ذراعها اليمنى على ظهر الكرسى . وفى حلم يقظة رأت أفعى سوداء تخرج من الحائط وتسعى للدغ والدها وهنا حاولت أن تبعدها ولكنها لم تستطع. إذ شعرت بشلل فى ذراعها الأيمن الذى كان « منملا » بحكم وضعه . وفى هذه اللحظة حاولت أن تصلى ولكنها وجدت أنها لا تعرف شيئا من الألمانية ولم تجد فى ذهنها إلا دعاء بالإنجليزية فرددته

وحدث أثناء العلاج أن ظهر عرض جديد . فكانت المريضة تأخذ كوب الماء فى يدها ولكن ما كاد يلمس شفتيها حتى تدفعه

بعيدا كما لو كانت تعاني مرض الهيدروفوبيا (hybrophopia أي الخوف المرضي من الماء) فكانت لا تستطيع الشرب على الرغم من شدة الحر في تلك الأيام؛ وكانت تلجأ إلى أكل الفواكه كمثل البطيخ لتخفف من شدة عطشها . استمر الحال كذلك لمدة ستة أسابيع وفي ذات يوم تحدثت أثناء نومها المغناطيسي عن مربيتها الإنجليزية التي كانت تكرهها . ثم ذكرت حادثة مؤداها أن هذه المربية سمحت لكلب ذات مرة أن يشرب من كوب كانت تشرب منه المريضة فتضايقت أشد المضايقة ولكنها اضطرت إلى قمع اشمئزازها تأدبا . بعد أن سردت هذه الواقعة وعبرت تعبيرا قويا عما سبب غضبها وأثار اشمئزازها طلبت كوبا من الماء وشربته ، وأفاقت من فيبوبة التنويم المغناطيسي وكوب الماء على شفتيها . ومنذ هذه الجلسة زال خوفها من الماء ، وبالمثل اختفت كل أعراضها الهستيرية والقليل الذي بقي كان عضوي المنشأ

انتهى « بروير » من هذه الحالة إلى نتيجتين : الأولى ؛ وهي خاصة بالناحية العلمية ، ومجملها أن بعض الأعراض المرضية سببها ذكريات لا يستطيع الشخص استحضارها إراديا.. أي أنها تقوم على ذكريات لا شعورية . الثانية ؛ وتتعلق بالطريقة العلاجية ، وهي تبين أن مجرد استكمال الذكرى المؤلمة النسية في الشعور مع التصريف الانفعالي يؤديان إلى الشفاء . وقد قام التحليل النفسي كله على هاتين النتيجتين اللتين توصل إليهما « بروير » إذ اتخذ منهما « فرويد » بداية لأبحاثه في « العصاب العظيم » وهو الهستيريا . ففي عام ١٨٩٥ ظهر كتاب لهما هما الاثنان بعنوان « دراسات في الهستيريا »

في هذا الكتاب أتى « فرويد » بآراء جديدة على جانب شديد من العمق فأظهر أن الهستيريا مرض نفسي يمتاز بضيق في ميدان الشعور . وكان « جانيه » يرجع ذلك الضيق إلى أسباب عضوية.. أما « فرويد » فإن كان لم يستبعد تلك الأسباب كلية إلا أنه أعلن أنها لا تعد تعليلا كافيا . ففي نظر « فرويد » أن فشل بعض التصورات في شق طريقها إلى الشعور إنما يرجع إلى استبعادها نتيجة لانعكاس دفاعي ، فهذه التصورات محملة بشحنة مؤلمة لتعارضها مع الميول الرئيسية الموجودة في الشعور .ولذلك فإنها تكبت ومن ثم فالهستيريا تقوم على الكبت وهذه أول إضافة أضافها فرويد إلى آراء « بابنسكي » (١) و « جانيه »

لقد اتفق « فرويد » مع « جانيه » على أن علة الاضطراب الهستيري هي التأثير اللاشعوري، ولكن فيما عدا ذلك فإنه يوجد تباين شديد بين آرائهما . فبالنسبة لجانيه يمكن أن يشبه النشاط النفسي بقاطرة إذا توقفت فذلك يرجع إما إلى كسر أو التواء في بعض أجزائها ، وهذا يمثل التوتر . وإما إلى حاجة القاطرة إلى ماء أو فحم ، وهذا يمثل الاضطرابات الديناميكية النفسية أو العصبية التي يمكن إصلاحها . أما فرويد فينظر إلى الأمر نظرة أخرى..فهو يمثل النشاط النفسي بقاطرتين إذا سارتا في اتجاهين متقابلين في طريق واحد فإنهما سيتصادمان وان يستطيعا التقدم، وهذا يمثل نوعاً جديداً من الاضطراب لم يقل به أحد قبل « فرويد » وهو الكف inhibition فهذ الاضطراب لا يرجع إلى التوتر ولا إلى نقص عصبي أو نفسي وإنما يرجع إلى اضطرابات ديناميكية متقابلة . فآراء فرويد مركزة حول فكرة إيجابية هي الصراع coflict بينما آراء « جانيه » تدور حول فكرة سالبة هي النقص Deficiency

وثمت فكرة أخرى قدمها « فرويد » وهي الأعراض الجسمية الهستيرية كانحباس الصوت aphonia أو الرجفة أو الشلل . وقد أطلق عليها اسم « الهستيريا التحولية » conversion hysteria فهذه ليست إلا الطاقة المؤثرة المكبوتة المتجمعة في اللاشعور . ولكن كيف يمكن لهذه الطاقة أن تتحول إلى أعراض جسمية ؟ يجيب « فرويد » بأن العرض الهستيري مثله كمثل الحلم . فهو يدل على رغبة مكبوتة يجب ألا تظل كذلك لأنها مادامت هي مدفونة في اللاشعور فإنها لن

(١) عندما ذاعت آراء « فرويد » في فرنسا اعترض عليها بعض الأطباء الكلينيكيين وقالوا إنها ليست إلا آراء « بابنسكي Bapinski » وكان طبيب أمراض عصبية . وملخص آرائه « أن الهستيريا حالة مرضية تمتاز باضطرابات يمكن استحداثها في بعض الأشخاص بواسطة الايحاء ويمكن إزالتها بتأثير الاقناع (ضد الايحاء) » ، وفرق بينها وبين توهم المرض بأنها تتضمن أشياء لا شعورية . ولكن « بابنسكي » لم يكن يحفل كثيرا بعلم النفس فلم يتعمق أكثر من ذلك ولم يشرح عملية الكبت وماتقوم به من دور رئيسي في عصاب الهستيريا كما فعل « فرويد »

تكف عن التعبير عن نفسها بواسطة أعراض شديدة الاختلاف إنه لا يكفي استبعاد الأعراض لأن مثل ذلك كمثل من يقطع الأعشاب السطحية ويبقى على الجذور. فالمصابون بالأعراض الهستيرية لم ينتهوا بعد من الموقف المؤلم أو الصدمة التي لحقت بهم، أنهم يظلون متعلقين بالموقف الماضي ويصبحون غرباء عن الحاضر والمستقبل. ثم يختفي ذلك الموقف في طيات النسيان ويصبح لاشعوريا ويحل محله الأعراض الهستيرية التي ما هي إلا الصراع في صور مختلفة. ولا يحدث ذلك من صدمة واحدة وإنما بعد معاناة عدة صدمات. وهو يعني بالصدمة trauma (٢) كل ما يجلب استثارة في الحياة النفسية تبلغ حدا من العنف بحيث يصبح قمعها أو التناسي بها أمرا مستحيلا بواسطة الطرق العادية. فتلك هي العلة الحقيقية لنشوء المتاعب الهستيرية

وقد أشار « فرويد » إلى نقطة هامة وهي أن كل عرض هستيري يكشف بوجه عام عن مجموعة من التأثيرات حدثت في حياة المريض فيما مضى ويؤكد أنه نسيها تماما. وقد رجع هذه التأثيرات إلى السنين الأولى من الحياة. ولذلك فإن « فرويد » ينظر إلى حياة الفرد كتيار متصل تترابط فيه الميول والرغبات. وهو يعتقد أن خلق الشخص يتكون قبل نهاية الخمس سنوات الأولى من العمر، ونحن إذا أنكرنا ذلك فإنما نعلن جهلنا بالعمليات العقلية لمرحلة الطفولة وما لها من تأثير لاشعوري. كذلك قد يرجع ذلك الإنكار إلى نسياننا لهذه الفترة من الحياة؛ ذلك النسيان الذي يحتاج إلى تفسير لأنه ليس عملية فسيولوجية طبيعية في نظر « فرويد »

يقول « فرويد » إن سبب نسياننا لمرحلة الطفولة infantil e amnesia هو الكبت الذي يقوم بدور كبير في مرحلة التعليم المبكرة. فالأطفال يأتون وهذا العالم وهم مزودون بميول ورغبات بريئة تتناسب وسنهم، ولكن هذه الرغبات وتلك الميول لا تتفق وعقلية الكبار الذين يعملون بكل ما في وسعهم لفطم الطفل عنها وتوجيه ذهنه إلى ميول أخرى. وهذا ما يسمى « بالتناسي ». ومن هنا يضطر الطفل إلى قمع ميوله البدائية ودفنها في اللاشعور. ولكن هذه الميول والرغبات المكبوتة لا تفقد شيئا من ديناميكيتها مدى الحياة؛ فإذا لم تكف طرق التناسي للتخفيف من الطاقة التي تحتوي عليها فإن النفس تعمل على تصريف تلك الطاقة بشتى الطرق ولو أدى ذلك إلى ظهور أعراض مرضية. فالأعراض العصابية تمثل في صورة مثيرة تحقيق الرغبات المكبوتة

إن للنسيان أهمية بالغة في الحياة النفسية، ولذلك يقول « فرويد » إن ما يجب عمله إزاء فكرة ينقصها معنى أو عمل ليس له هدف هو أن نعثر على الموقف الماضي الذي تحققت فيه الفكرة ووصل العمل إلى هدف. « وكان « جانيه » يستخدم التنويم المغناطيسي ليصل إلى ذلك الموقف الماضي ثم يهاجم الأفكار بعد ظهورها بوسائل مختلفة كالإيحاء أو إيجاد عناصر منافسة لها أو تحل محلها. ولكن تبين « بروير » و « فرويد » أنه لا يمكن استعمال التنويم المغناطيسي في جميع الحالات وا كتشفا أن إكمال الذكرى المؤلمة بإعادة الجزء المنسي منها إلى الشعور مع التصريف الانفعالي.. فيهما الكفاية للشفاء وزوال الأعراض. لهذا لم يأخذا بالإيحاء المباشر لمحاربة الأعراض ولم يوافقا على استبدال أفكار بأفكار. لقد حصرا العلاج التحليلي في حل العادات المرضية وذلك باستذكار الحوادث التي نبعت منها. فيجب ملء كل الثغرات التي في ذاكرة المرضى، أي يجب استبعاد « الأمنيزيا » وجعل كل ما هو لا شعوري شعوري

أما سر زوال الأعراض بمجرد استحضار الذكريات المنسية فيرجع إلى أن التحليل النفسي يحول المرض إلى صورته الأصلية. هذا من جهة. ومن جهة أخرى نلاحظ أن التداعي الحر (٣)

(٢) يلاحظ أن الحوادث ذاتها لا تعد صدمات، فمثلا اعتراض أسد لطريق شخص ما لا يعد صدمة.. إنما الذي يعد كذلك هو التصور الذي ينشأ نتيجة لهذه الواقعة. فاعتراض الأسد طريق شخص ما قد يؤدي الى صدمة بالنسبة لذلك الشخص وقد لا يؤدي الى شيء بالنسبة لشخص ثان. الكلمة traumatic مرادفة له wounding أو injurious

(٣) Free associations ومنه طريقة علمية جديدة ابتدعها فرويد. فكان يطلب من المريض أن يذكر له كل ما يدور بذهنه دون أن يعمل على تغيير مجرى التيار النفسي أو توجيه أي نقد. وبهذا كان يقف فرويد على مخاوف المريض وأسباب قلقه أو عذابه. فالتحليل النفسي يقول للمريض « إنه من أجل هذا تفكر هكذا » ولا يقول له « إنك مخطئ » لشعورك بهذا الخوف أو ذلك الانحياز إن كل ما يهمه أن يجعل العلة المرضية مشعورا بها

الواقعيــة الفنية

للأستاذ عبد الوهاب محمود

عاشت المدرسة الابتداعية (Ecole Romantique) في عالم من خيال تتقاذفها صور الكآبة والحنين واليأس، ويشق الاغتراب الروحي طريقه إلى نفوس كتابها، فلجئوا بدورهم في دنيا من ضباب، وسلكوا في أساليبهم مسلكاً تشيع منه الأحزان والمشاعر النفسية القلقة المضطربة. ولعل (هوجو) خير من يمثل هذا المذهب الفني الأدبي

وكرد فعل لهذه المدرسة التي غالت في الخيال برزت المدرسة الواقعية (Ecole Realiste) في ميدان الأدب، وسرعان ما سارت في هذا الميدان واتجه إليها كثير من الأدباء اتجاهاً فنياً صادقاً يتمشى مع روح الواقعية الحقة بينما سلك آخرون سبيلا ملتوية، لا تمت إلى الواقعية الفنية بصلة. ومن آثارها ذلك الإنتاج الغزير الذي (تقذفه) إلينا الصحف والمجلات، وبخاصة تلك الصحف التي تبغي الكسب المادي. وكثر أنصار هذه الواقعية الحمقاء التي تتجسم بنقل الواقع نقلا (فوتوغرافيا) جافا جامدا كأنتمثل بتلك الدنة المزيلة حتى ذهب بعضهم إلى الاتجاه للغة العامية (١)، إلا أن حقيقة هذا المذهب الأدبي غير مابرى هذا الفريق! فالفنان كما يقول توفيق الحكيم (٢) ليس محرر تقارير، وإنما هو محرر عواطف. وليست الأمانة المطلوبة منه نقل الأحداث دون المشاعر والعواطف، فالواقعية كما يرى دبهاميل ليست بالواقعية الفوتوغرافية (Réalité phorraphgue) التي لا يخرج عملها عن عمل آلة التصوير التي (كافت) بالتقاط الواقع بحركة آلية عمياء جافة. ولعل الذي دفعني إلى كتابة هذه العجالة تلك المسالك السود، التي أخذ يسلكها نفر من كتابنا حتى مسخوا وجه الحقيقة وغدا أدبهم لا يعدو تلك (اللقمة) التي تتربع على مائدة الطعام، أو تلك الصور التي يشيع فيها التشاؤم والرعب من الحيـاة

الواقعية الفنية لا تبعدنا عن حياتنا — كما يظن — بل هي الواقع المحس قد داعبته أنامل الفنان، وقد يرسم الفنان — الشاعر أو القصاص — صوراً ماثلة في الواقع، واقعة حقا، وقد لا تكون كذلك كما لا يلزمنا أن تكون تلك الصورة المنقولة صورة سامية حسنة جميلة، بل كل ما يطلبه الفن نقل الصورة نقلا فنيا، وكل ما يطلبه الواقع نقلها بأمانة. وإذا صهرنا مطاليب الفن ومطاليب الواقع — في بوتقة واحدة — ظهر لنا (الأدب الواقعي الفني) الذي هو نفسه الأدب المصور المؤثر

ويحضرني الآن رأي للأستاذ المداوي نشره في تعقيباته في عدد الرسالة الفائت (٣) إذ قال: الواقعية ضربان، واقعية أولى ويكون فيها نموذج الشخصية موجودا (بالفعل) في الحياة، والواقعية الثانية، ويكون فيها نموذج الشخصية موجودا (بالإمكان). ولم يقف الأستاذ المداوي عند هذا الحد، إنما ذهب إلى تعريف الواقعية الأولى فقال (هي نقل مباشر لصور الحياة وطبائع الأحياء، كما هي في الواقع المحس الذي تلمسه العين وتألفه النفس) ولو وقف الأستاذ عند قوله: (إنها نقل مباشر لصور

(١) يرى الأستاذ أحمد حسن الزيات بك أن الاتجاه إلى العامية ناتج عن جهل بعض الأدباء باللغة الفصحى (دفاع عن البلاغة)

(٢) (تحت المصباح الأخضر)

(٣) الرسالة عدد ٩٣٩، السنة التاسعة عشرة

يسمح للمريض باسترجاع الذكريات المؤلمة على دفعات. فما لوحظ أن الذكرى المكدرة لا تسترجع أولا وإنما تأتي الأفكار التي ترتبط بهذه الذكرى.. ومنها يتدرج إلى الذكرى المؤلمة حقا. وهكذا فإن المريض لا يواجه ما ينغصه مرة واحدة.. بل يأخذه جرعة جرعة، يضاف إلى ذلك أن وجود المحلل يشجع المريض ويقوي أنيته. فكل اضطراب نفسي له علة مهما كان غموضه في الظاهر، وعمل المحلل الكشف عن هذه العلل.. ولا يستطيع القيام بذلك إلا من هيئ ليقابل بهدوء كل محتويات الذهن اللاشعورية.. وكان لديه خبرة وافية بطريقة حل الصراع

البقية في العدد القادم

فائزة علي كامل